حديث عن الإنسان
في القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطوبي
عضو المجمع

سبق لي أن تحدثت في العام الماضي أمام هذا المجلس المزقر عن « دواب الأرض في القرآن الكريم » ، وأوضحت في ذلك لحديث أن تلك الدواب تبدأ من النملة الصغيرة حتى الإنسان العاقل ، فكلها من المخلوقات التي تدب على سطح الأرض ، تأكل من رزق الله وتسبح بحمده ، وقد ورد في القرآن الكريم ما يستدل منه على أن هذا الإنسان العاقل إن هو إلا أحد تلك الدواب كما في الآية الكريمة التالية :

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » . (٦١ / النحل)

ولكن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان العاقل بالفطنة والذكاء ، وجعل له من قدراته العقلية والحسدية ما يتفوق به على سائر المخلوقات ، حتى أصبح بمصل من الله وحكمة ، سيد المخلوقات جميعًا دون منازع ، وأصبحت له السيطرة الكاملة على محريات الأمور في هذا العالم المتسع الأرجاء .

ولذلك فقد تراءى لي أن أحص هـذا الإنسان العاقل بحديث مستقل أستمدُّ عناصره وأساسياته من القرآن الكريم ، فكان حديث اليوم .

الانسان ، الناس ، البشر :

إن لفظ « الإنسان » يطلق على كل من الذكر والأنثى من بني آدم كما ورد في « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء ٢ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٢٧ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٠ م .

وصدرت طبعته الأُولى سنة ١٩٥٣ (ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين) وقد ورد هذا اللفظ بدون أداة التعريف مرة واحدة فى القرآن الكريم ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى :

« وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ »

(صدق الله العظيم)

(١٣ / الإسراء)

أما مع أداة التعريف فقد ورد ذكره فى كثير من الآيات البينات نذكر منها على سبيل المثال :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »

(٨ / العنكبوت)

« أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ »

(٣ / القيامة)

« يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » .

(١٠ / القيامة)

« يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى » .

(٣٥ / النازعات)

« خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(٣ ، ٤ / الرحمٰن)

« إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » .

(صدق الله العظيم)

(١٩ / المعارج)

وعدد هذه الآيات البينات إحدى وستون آية (٦١) ، كما ورد فى معجم ألفاظ القرآن الكريم . تضاف إليها ثلاثُ آيات أُخرى (٣) المقصود فيها بلفظ الإنسان هو آدم عليه السلام ، وتلك الآيات الثلاث هى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » . (٢٦ / الحجر)

« وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ »

(٧ ـ السجدة)

« خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »

(صدق الله العظيم)

(١٤ / الرحمٰن)

ومعنى ذلك أن هناك أربعًا وستين (٦٤) آية ورد فيها لفظ « الإنسان » معرفًا ، كما ورد فى معجم ألفاظ القرآن الكريم .

عند قراءة هذه الآيات البينات استعدادًا لكتابة هذا البحث عثرت على خطإٍ يسير غير مقصود فى سرد الآيات السابق ذكرها ويكون لى اليوم شرفُ تصحيح هذا الخطأ . ففى قائمة الآيات الخاصة بالإنسان عامةً وجدت الآية رقم « ١٢ / المؤمنون » ضمن

هذه القائمة . وتلك الآية هى كما يلى .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ » . (صدق الله العظيم)
(١٢ / المؤمنون)

ولَمَّا كانت هذه الآية الكريمة المقصود فيها أيضًا بلفظ « الإنسان » هو آدم عليه السلام ، فيجب ضمها إلى الآيات الثلاث الأُخرى المتعلقة بآدم ، وبذلك يكون العدد الحقيقى للآيات الخاصة بالإنسان عمومًا هى ستون آية (٦٠) ، وتلك التى تشير إلى آدم عليه السلام هى أربع آيات (٤) بدلًا من ثلاث .

يضاف إلى تلك الايات السابقة ست آيات أُخرى (٦) ورد فيها لفظ « الإنسان » مجرورًا باللام ، كما فى قوله تعالى :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .
(صدق الله العظيم)
(٥ / يوسف)

ولَمَّا كانت كلمة « الناس » تطلق كما هو معروف على « الجماعة من الإنسان » فلابد لنا من التعرف على ورود هذا اللفظ فى القرآن الكريم ، وخصوصًا أنه أكثرُ الألفاظ دلالة على بنى البشر ، إذ أنه ورد فى مختلف الآيات القرآنية مائتين وأربعين مرة (٢٤٠) ، نذكر منها على سبيل المثال الآيات التالية :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ » . (٤٤ ـ البقرة)

« فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . (٢٤ / البقرة)

« فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » . (٨٥ / الأعراف)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ » . (٩ ـ آل عمران)

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . (صدق الله العظيم)
(٥٨ / النساء)

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى لفظ آخر يدل على الإنسان وهو « البشر » لوجدنا أنه ورد كثيرًا فى القرآن الكريم ، ومن أمثلة الآيات التى ورد فيها هذا اللفظ ـ الآيات التالية

« قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ » . (٤٧ / آل عمران)

« قَالَ لَمْ أَكُنْ لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » .

(٣٣ / الحجر)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ »

(صدق الله العظيم)

(١١٠ / الكهف)

الذكر والأنثى :

لست فى حاجة إلى القول إن الإنسان أو الناس أو البشر منهم الذكر ومنهم الأُنثى ولولا وجودُهما معًا لما استمرت الحياة على ظهر هذه الأرض من عهد آدم إلى يومنا هذا ، وكانت الأقوام فى العهود الغابرة وخصوصًا أيام الجاهلية الأُولى يفضلون الذكر على الأُنثى ، وربما كان هدا الشعور العدائى نحو ولادة الأُنثى من رواسب المعتقدات القديمة التى توارثها الإنسان جيلًا بعد جيل . فقد عُرف مثلاً أن العرب فى الجاهلية ، أى قبل ظهور الإسلام كانوا يعتبرون ولادة الأُنثى كارثة تنخلع لها قلوبهم ، وليس أدل على ذلك من الوصف الذى أورده القرآن الكريم بهذا الخصوص ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » .

(صدق الله العظيم)

(٥٨ ، ٥٩ / النحل)

وكان العرف السائد حينئذ هو التخلص من المولودة الأُنثى ، وكأنهم يتخلصون من داءٍ وبيل ، وكان مبعث هذا الشعور هو الخوف مما قد ترتكبه تلك الأُنثى من الفساد عندما تشب وتنضج ، أو من وقوعها فى الأسر فى أيدى أعدائهم ، حيث كانت القبائل البدوية فى حروب تنبه مستمرة .

وكانت القبيلة المنتصرة تأخذ الأسلاب من ممتلكات القبيلة المهزومة ، كما كانت تأخذ نساءها أسرى حرب أو سبايا ، ولذلك كانوا يتخلصون من الأُنثى بعد ولادتها مباشرة بدفنها حية فى التراب ، مما كان سببًا فى نزول الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ »

(صدق الله العظيم)

(٨ ، ٩ / التكوير)

ولم يكن الانزعاج من ولادة البنت ، مقصورًا على الرجال وحدهم ، بل يتعداهم

إلى النساء أيضًا ، وقد نتلمس شيئًا من هذا القبيل فيما ورد ذكره فى القرآن - الكريم عن « امرأة عمران » فى الآية الكريمة التالية :

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى » (صدق الله العظيم)

(٣٦ - آل عمران)

ثم تستمر بعد ذلك فى مخاطبة المولى عز وجل قائلة :

« وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى »

(صدق الله العظيم)

(٣٦ / آل عمران)

وقد نستشف من دلك أنها غيرُ قانعة تمامًا بتلك المولودة ، أو أنها غير راضية عنها وإن لم يرد ذلك صراحة فى تلك الكلمات ، بل إنها كانت تفضل المولود الذكر ، لأنه فى عرفها أفضل من الأُنثى

وقد تلاشت تمامًا تلك الأفكار القديمة فى عصرنا الحاضر ، أو كادت ، ولم يعد هناك أىُّ تمييز أو تفضيل بين الذكر والأُنثى فى مضمار الحياة ، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى :

« يَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ الذُّكُورَ » (صدق الله العظيم)

(٤٩ - الشورى)

الأساس العلمى للذكورة والأنوثة :

إن ولادة الذكور أو الإناث تسير فى نظام محدد ثابت منذ بدء الخليقة إلى الآن ، فقد وضع الله سبحانه وتعالى فى حساباته الدقيقة أن تكون ولادة الذكور مساوية تمامًا لولادة الإناث . فلا يطغى أحدهما على الآخر عدديًا ، ممَّا قد يؤدى إلى اختلال فى موازين الوجود والبقاء على سطح الأرض .

وتدل جميع الإحصائيات فى مختلف بلاد العالم أن عدد الذكور مساو تقريبًا لعدد الإناث . ومع ذلك فقد وجد مثلًا أنَّ هناك بعض العائلات التى تلد نساؤها ذكورًا أكثر من الإناث ، وهناك عائلات أخرى تلد نساؤها إناثًا أكثر من الذكور . ولكن المجموع الكلى للذكور يكون مساويًا لمجموع الإناث فى نفس هذا المجتمع .

وعلى أية حال فقد ثبت علميًّا فى الوقت الحاضر أن المرأة غيرُ مسئولةٍ إطلاقًا عن ولادة الذكور أو الإناث . وذلك ، لأن

جميع البويصات (ova) التى تخرج من المبيض – والتى يتكون منها الجنين بعد إخصابها – من نوع واحد فقط ، وهذا النوع الوحيد من البيض قادر على إنتاج الذكور أو الإناث ، فهو يحتوى بداخله على نوع واحد فقط من الصبغيات الجنسية أو الكروموسومات (Chromosomes) يطلق عليه اسم الكروموسوم السينى (س) ، ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (X)

أما الماءُ الدافق الذى « يخرج من بين الصلب والترائب » فهو يحتوى على خلايا جنسية من نوعين مختلفين ، يحمل أحدهما بداخله الكروموسوم السينى (س) ، بينما يحمل النوع الثانى كروموسوماً جنسيًّا آخر هو الكروموسوم الصادى (ص) ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (Y)

إن هذه الخلايا الجنسية دقيقة الحجم تمامًا إذا قورنت بحجم البويضة . ويوجد منها ما يقرب من الثلاثمائة مليون فى الدفقة الواحدة ، وعند وصولها إلى داخل الرحم فإنها تتسابق جميعًا نحو البويضة – إن وجدت – لإخصابها ، تدفعها فى ذلك قوة غامضة يطلق عليه العلماءُ اسم « التوجه الكيميائى » (Chemotaxis) ، ويكون الفوز للمتسابق الأول الذى يصل إلى البويضة قبل غيره ، إذ أنه يندمج معها تمامًا ، ويقال للبويضة عندئذ : إنها قد أخصبت . ولما كانت تلك الخلايا الجنسية توجد بأعداد متساوية تمامًا ، تكون الفرصة سانحة لأى من النوعين : (س) أو (ص) لكى يؤدى إلى إخصاب البويضة .

وبذلك يكون هناك احتمالان فقط ، لاثالث لهما :

الاحتمال الأول :

بويضة + حيوان منوى ← عملية الاخصاب ← بويضة مخصبة

س س ← الاخصاب ← س س

ويكون المولود أنثى

الاحتمال الثانى :

بويضة + حيوان منوى ← عملية الاخصاب ← بويضة مخصبة

س ص ← الاخصاب ← س ص

ويكون المولود ذكرًا

وتبعًا لقانون الاحتمالات يكون نصف

المواليد (٥٠ ٪) من الأولاد ، والنصف الآخر من البنات . وهو ما يشاهد فى مختلف بلاد العالم بصفة عامة

وأحب أن أنوه هنا أن بعض علماء الوراثة قد قاموا بعدة محاولات للتحكم فى جنس الجنين فى الإنسان . وكانت آخر هذه المحاولات تعتمد على فصل الحيوانات المنوية المنتجة للذكور (وهى الحاملة للكروموسوم ص) عن تلك المنتجة للإناث (وهى الحاملة للكروموسوم س) بعد تكوينها داخل الخصية . ثم إتاحة الفرصة للنوع الأول منها لإخصاب البويضة دون النوع الثانى وذلك فى حيوانات التجارب تمهيدًا لاستخدامها بعد نجاحها فى حالة الإنسان . ولكن لم يكتب لمثل تلك المحاولات أى نجاح على الإطلاق ، ويظل الأمر كله فى يد الخالق العلى القدير ، كما تحدثنا الاية الكريمة

« يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ » . (صدق الله العظيم)
(٤٩ / الشورى)

مراحل العمر

الطفل ، الصبى ، الغلام .

إن كل هؤلاء المواليد سواء كانوا من الذكور أو الإناث يمرون خلال حياتهم بمراحل متعددة لكل منها فى القرآن ذكر ، وأول هذه المراحل هى مرحلة الطفولة ، ولم يرد لفظ « الطفل » فى القرآن الكريم إلا بمعنى الوليد (كما هو واضح من معجم ألفاظ القرآن الكريم) . ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية .

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » .
(صدق الله العظيم)
(٦٧ / غافر)

وآية أخرى مماثلة .

« وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » .
(صدق الله العظيم)
(٥ / الحج)

ثم يأتى بعد ذلك الصبى ، وقد عُرِّفَ فى « المعجم الوسيط » بأنه الصغير دون الغلام ، أو من لم يفطم بعد ، وعرف فى معجم ألفاظ القرآن الكريم بأنه « من لم يبلغ الحُلُمَ » ، وقد وردت عنه فى القرآن الكريم آيتان فقط ، إحداهما

هى الآية الكريمة التالية :

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . (صدق الله العظيم)

(١٢ / مريم)

هناك بعد ذلك الغلام ، وقد عرف فى معجم القرآن الكريم والمعجم الوسيط بأنه « الصبى من حين يولد إلى أن يشب » ، ووردت عنه فى القرآن الكريم عدة آيات نذكر منها على سبيل المثال :

« قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ »

(١٩ / يوسف)

« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » .

(١٠١ / الصافات)

« فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ »

(٧٤ / الكهف)

النضوج الجنسى :

أما بعد بلوغ الحُلُم أو بعد مرحلة البلوغ فيكون هناك تمييز واضح بين الذكر والأُنثى ، أو بين الرجل والمرأة نتيجة لظهور مايعرف « بالصفات الجنسية الثانوية » ، وتنتج هذه الصِّفات بتأثير هرمونات معينة تفرزها الخصية عند الرجال أو المبيض عند النساء .

والمعروف أن الصبى أو الغلام عندما يقترب من سن البلوغ أو عند اجتيازها تظهر عليه عدة تغييرات جسدية منها على سبيل المثال عمق الصوت وخشونته نتيجة لنمو الحنجرة والأحبال الصوتية ، وخشونة الجلد بعد أن كان ناعم الملمس كجلد الفتيات ، ثم البدء فى نمو الشعر على الوجه لتكوين الشارب واللحية . ونمو عضلات الجسم وتضخمها وخصوصًا عضلات الأذرع والسيقان ، ولا يكون هناك تركيز لتوزيع المواد الدهنية تحت الجلد فى الصدر وعند الأرداف كما هى الحال عند الإناث .

أما الفتاة الصغيرة فمن أظهر صفاتها الجنسية الثانوية نمو الأثداء بطريقة تؤهلها للقيام بوظيفتها المستقبلية ، وهى إدرار اللَّبن لإرضاع المولود وكذلك توزيع المواد الدهنية تحت الجلد بصورة تؤكد أُنوثة الأُنثى . وخصوصًا عند الأرداف . وهو مايعنيه الشاعر بقوله :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة
لايشتكى قصر منها ولا طول

أى أنها نحيفة البطن ممتلئة العجز ، ممّا يجعلها فى صورة تختلف تمامًا عن صورة الرجل .

هذا بالإضافة إلى نعومةٍ فى الصوت ، فلا يختلف كثيرًا عن صوت الطفل ، ونعومة فى الجلد فيظل ناعم الملمس ، ولا تدركه الخشونة الموجودة فى جلد الرجال.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر فيها كل من الرجل أو المرأة على حدة ، نذكر منها على سبيل المثال :

« أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ » .

(٧٨ / هود)

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى »

(٢٠ / القصص)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ » .

(٢٨ / غافر)

« إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » . (صدق الله العظيم)

(٢٥ / المؤمنون)

أما المرأة فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم للدلالة على الأُنثى من بنات آدم ، كما فى قوله تعالى :

« إِنِّى وَجَدْتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » .

(صدق الله العظيم)

(٢٣ / النمل)

ولكن الأَغلب والأَعم هو ورودها بمعنى الزوجة ، وتكون مقرونة باسم زوجها ، كما فى الآيات التالية :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » .

(٣٥ / آل عمران)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ » .

(٣٠ / يوسف)

« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ » . (صدق الله العظيم)

(٩ / القصص)

الكهل ، الشيخ :

ويصل كل من الرجل والمرأة إلى دور الكهولة ، ويطلق لفظ « الكهل » كما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم على من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ووخطه الشيب ، وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن

الكريم فى آيتين فقط فى معرض الحديث عن عيسى عليه السلام :

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ » . (٤٦ / آل عمران)

«إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا » (صدق الله العظيم) (١١٠ / المائدة)

أما الشيخ فتعريفه فى معجم ألفاظ القرآن الكريم « من الخمسين إلى آخر عمره ، وقيل إلى الثمانين » . وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم ثلاث مرات فقط فى الآيات التالية :

« أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخًا » . (٧٢ / هود)

«لانَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ[1] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » (٢٣ / القصص)

« ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا » . (صدق الله العظيم) (٦٧ / غافر)

ابيض واسود :

نعرف جميعًا أن آدم عليه السلام ، وزوجته حواء كانا يعيشان فى الجنة ولكنهما استمعا إلى وسوسة الشيطان وأكلا من الشجرة المحرمة ، فطردا من الجنة كما توضح الآية الكريمة التالية :

« قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » . (صدق الله العظيم) (١٢٣ / طه)

ومنذ ذلك التاريخ السحيق وأبناؤهما يضربون فى مجاهل الأرض ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، حتى امتلأت بهم الدنيا على سعتها ، وأصبحوا يبلغون الخمسة آلاف من الملايين على وجه التقريب ، كما أصبحوا شعوبًا وقبائل ، يتباينون فى صفاتهم وطبائعهم ، كما يتباينون أيضًا فى لغاتهم وألوانهم ، كما توضح الآية الكريمة التالية :

« وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » . (صدق الله العظيم) (٢٢ / الروم)

---

(١) يصدر الرعاء — يسقى الرعاة دوابهم ويصرفوها عن الماء .

المقصود « بالألسنة » هنا هو «اللغات » التى يتكلم بها بنو البشر فى مختلف أرجاء العالم ، كما هو معروف ، وقد أشرت فى حديثى السابق إلى أن اللغة إن هى إلَّا أصوات ينطق بها اللِّسان ، فتستقبلها الأُذن وتدرك المقصود منها ، وأن الإنسان يتعلم فى طفولته جميع الكلمات التى ينطق بها كل من حوله من البشر ، أى أنه يتعلم اللغة تعليمًا ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق.

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب ـ بالصَّمَم لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التى نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من البكم الذين لا يتكلمون ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصَّمَم والبَكَم فى كثير من الآيات القرآنية ـ الكريمة ، ومنها مثلًا :

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » .
(١٨ / البقرة)

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . (صدق الله العظيم)
(٧٨ / النحل)

أما الألوان فالمقصود بها على الأرجح لون الجسم من بياض أو سمرة أو سواد أو غيرها وقد وردت فى القرآن الكريم عدة آيات تدل على اللون عمومًا ، منها على سبيل المثال :

« يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » .
(٦٩ / النحل)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا »
(٢٧ / فاطر)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا »
(صدق الله العظيم)
(٦٩ / البقرة)

وسوف أقتصر هنا فى كلامى على لون الإنسان دون الألوان الأخرى ، ففى الأقاليم الشمالية الباردة حيث تكون أشعة الشمس ضعيفة نسبيًا ، ويكون عدد الأيام المشمسة قليلًا على مدار العام ، نجد أن الجلد لا يحتوى إلَّا على كمية قليلة من صبغ الميلانين[1] (Melanin) مما يودى إلى بياض البشرة وإلى وجود العيون الزرق ،

(١) الميلانين صبغ أسود أو بنى داكن يستقر داخل الجلد عند قاعدة البشرة فى خلايا خاصة تسمى « خلايا الميلانين »

والشعر الأَصفر ، كما هى الحال فى البلاد الإسكندينافية على سبيل المثال .

فإذا انتقلنا نحو الجنوب نجد أَن لون الجلد والشعر والأَعين يزداد سمرة بالتدريج حتى نشاهد اللون الأَسود الدَّاكن فى المناطق الاستوائية وهى المناطق التى لا تكاد تغيب عنها الشمس طول العام ، كما تكون الأَشعة الضوئية فى أَعلى معدلاتها قوة ، وانتشارًا ، وهو مايوضِّح لنا أَن كمية الصبغ الأَسود الموجود فى جلد الإنسان يتناسب تناسبًا طرديًّا مع كمية الأَشعة الضوئية التى يتعرض لها فى حياته اليومية .

والواقع أَن صبغ الميلانين له أَهمية قصوى فى حماية أَنسجة الجلد اللينة من التأثيرات المدمرة «للأَشعة فوق البنفسجية» الموجودة فى الشمس ، ولذلك تتكون من هذا الصبغ طبقة داكنة تمنع وصول تلك الأَشعة إلى داخل الجلد ، ولذلك تكون هناك اختلافات واضحة فى كمية الميلانين الموجودة فى الجلد فى مختلف السلالات البشرية تبعًا للبيئات التى تعيش فيها كل من تلك السلالات .

ويتضح من ذلك أَن اللون الأَسود نعمة لا نقمة ، وحسنة لا سيئة ، قدرها الله سبحانه وتعالى لعباده الذين يعيشون فى أَقاليم قد تتعرض فيها جلودهم ، وبالتالى أَنفسهم للهلاك بفعل أَشعة الشمس ، فالمعروف أَن الجلد هو خط الدفاع الأَول فى وقاية الإنسان من « الغزو الميكروبى » للجسم ، ولعل البيض فى جنوب إفريقيا يعون هذه الحقائق ، وتتفتح أَبصارهم وقلوبهم على الحق والعدل

تلك نبذة قصيرة عن « الإنسان فى القرآن الكريم » ، تناولت فيها قليلا من الحقائق المتعلقة بحياة هذا المخلوق الذى كرمه الله سبحانه وتعالى ممثلًا فى آدم عليه السلام ، حيث طلب من الملائكة أَن يسجدوا له إجلالًا وتعظيمًا ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

(صدق الله العظيم)

(٣٤ / البقرة)

ثم فى قوله سبحانه وتعالى :

«لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»

(٤ / التين)

توضح المنزلة الرفيعة التى اختصه بها سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات .

ولعلى أكون قد وفقت فى عرض هذا وغير ذلك من الآيات البينات التى الحديث .

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع